ساعة فى هياكل الشعراء

طاغـــور

شعره ، تأمله وتساؤله ، مناجاته ، الشرق والغرب

للأستاذ يوسف البعيني

كأنى بالقارىء وقد أثاره حب الاستطلاع لجاء يطالبنى بشوق واهتمام قائلا : أراك قد اخترت ـ طاغور ـ موضوعا لبحثك وحديثك دون سواه من الشعراء اللامعين على كثرتهم وتعدد نواحى الاستقراء فى شؤونهم وشجونهم . وأنا حتى أجيبك إلى طلبك وأبين لك الغاية من اختياره لحديثى هذا ، أريدك أن تعلم أن طاغور هو شاعر عبقرى متصون ذو خيال رقيق تسربل بالرشاقة والفخامة والتوت عنه عواتير العقم والخشونة . وهذه مزية سامية لم يتصف بها شاعر من شعراء هذا العصر

على أن إذاعة البحث فى شاعرية طاغور تتطلب أمرا هاما وهو أن نلقى نظرة بعيدة على شخصيته لنعلم ما إذا كان مثالا صادقا للعصر الذى يعيش فيه ، وما إذا كان مرآة صافية لأخلاق البيئة التى ترعرع فيها . أم هو شاعر محلى محصور الثقافة والاحساس لاينقل لقرائه سوى أصداء أوهامه ، ولا يرسم شعره إلا المواضيع التافهة والصور الباهتة الحسب

أما أنا فأرى أنه يمثل عصره تمام التمثيل لأنه يعيش فى عهد التجديد ونهوضه وبعثه ، وفى عهد يقظة الروح بالشرق الأقصى وإذاً فاحلامه التى تلمع فى شعره هى أحلام الجيل الذى يعاصره ، ذاك الجيل الذى روعته الثورات والحروب ، وأبهظته مخاوف الألم والموت

شعره

قرأت لطاغور كثيراً من شعره ، وكنت قبل أن أقرأ ذلك الشعر أعتقد أن الشاعر الحقيق هو من يحسن حبك القوافى وسبك الألفاظ وتحكيم الأوزان . ولكن بعد أن قرأته وتذوقت أقواله وتصوراته اصبحت أعلم أن الشاعر هو ذلك الملفن المتقد الاحساس الذى يحرق نفسه بخورا فوق محاريب البشرية لينير تلك الأرواح العاصفة فى دياجى آلامها وبلاياها

وتأكدت أن الشاعر هو من يرهف أذنيه لاستماع خشخشة العبودية تجرها الأقدام الدامية فى سيرها إلى أعماق السجون ، ونحو أعواد المشانق !

هو من تحزنه الزهرة الذابلة ، وإنه يشاهد فى ذبولها صفحة حياته البالية . . .

هو من يخيفه قصف الرعود لأنه يعيد إلى ذهنه ذكرى الحروب والثورات . . .

بلى ... فى شعر طاغور شاهدت كيف يحرق الألم نفس الشاعر ، وسمعت زفرات قلب متفطر ينسحق فى قبضة الأسى والحنين ، ويتبعثر بين غمائم التذكار والكآبة !

وطاغور شاعر متفنن ذو رقة لذيذة وخيال طافح بالعذوبة ، وأنت إذا قرأت قطعة من شعره فكأنك تقرأ روحاً تذوب فى مرجل آلامها وحسرانها ، أو تشرب كأساً من الدموع المريرة

إذا حدثك عن حب مستتر فى لهوف الماضى ، فأنت ترى ذلك الحب بعينيك . وإذا رسم لك ما ينهش قلبه من أسى وحنين فتكاد تسمع ذلك بأذنيك فتحترق شفقة عليه !

يداعب ميولك ومشاربك فتحس به قد دخل عليك واحتل ذاتيتك ، فتعشقه راكضاً وراء الفراشة فى الحقل ، أو صاعداً إلى النجوم على سلم منسوج من ضوء القمر

وهو خيالى . . . ولكن يا له من خيالى رائع يحاول أن يملأ كاسك من عصير روحه الساحرة . لكنه يعترف لك بأن هذا الذى يرشحه فى مراشف سطوره وتعابيره ليس سوى أنداء هابية سكبتها الطبيعة فى روعه الخافق ليفرغها فى محاجر الانسانية التى تريد التملص من قيودها وأغلالها .

فمن هذا يستدل القارىء على بعد غور شاعريته ، وصفاء مصدره ، وصدق عقيدته ، ورحابة آفاق تاملاته وأحلامه !

تأمله وتساؤله

لم يعرف الأدب العالمى فى أوائل هذا الجيل شاعراً كثير التأمل والتساؤل إلا ـ بيرلوتى ـ الأديب الفرنسى المشهور ، هذا الشاعر الحساس أخرج للناس طائفة من القصائد والقصص هى غاية فى الاستغراق والتحالم بينها كتاب (موت أنس الوجود) الذى رسم فيه ليالى مصر المقمرة البيضاء رسماً يغمر القلوب بموجة من السحر والجمال ، وينبه فى سراديبها المظلمة أشباح الشجن والحنين ، ويعلم الناس أن بيرلوتى لم يفعل ذلك إلا ونفسه مستبشرة بنور الفن ، ثملة بلذة المذهب الوجدانى وفتونه . ولكن طاغور ، أى حافز ، بل أى داع دفع به إلى اجتناء تلك الزهرة اليانعة وهو رجل يعيش فى معترك بعيد من الفن والنضج والألمعية . إذا لم يكن ذلك دليلا واضحاً على أن الروح العظيمة ، الروح المستنيرة بنور الالهة ، لايقعدها المحيط الصاخب عن تغريدها ، ولا تؤثر بها عوامل الحياة

ولكى يقف القارىء على صحة ما أقول ، أورد له مثالا من تأمله وتساؤله . قال فى قصيدة جزلة مؤثرة تحت عنوان (المنشأ) أنالته مع غيرها جائزة (نوبل) فى عام ١٩١٤ :

* * *

« سأل الطفل أمه ذات مرة : أين كنت يا أماه ، وفى أى مكان كنت تحتفظين بى ؟

فارتعشت عواطف الأم حنواً وضمت طفلها إلى صدرها وأجابت :

كنت ياحبيبى مستتراً فى أعماق فؤادى ، بل كنت ماثلا بين الاعيب طفولتى . . فعند ما كنت أنهض فى الصباح لأجبل مثال الله العجيب من الطين لم أكن أجبل سواك

كنت يابنى فى هيكل بيتنا المقدس سرا أعبده فأعبدك فيه . وهكذا نشأت فى حياتى وحياة أبى من قبلى . فبآمالى ورغائبى كنت أغذيك ، وبحرارة الروح الكامنة فى كنت أهيئك للحياة !

وبينما كنت لا أزال عذراء ، كانت روحى تفتح كمائم زهرتك المزمعة لتلفك بعبير الشوق والحنين . يوم ذاك كنت يابنى نوراضئيلا يلمع فى أحشائى كسنا الشمس عند ما تنحسر عنه سجوف الظلام .

فياحبيب السماء ووليد الصباح المشرق فى وهاد قلبى : إنى كلما تأملتك يغمرنى فيض من العاطفة فأحس أنك لى وحدى ، وأننا متحدان دائما بالشعور والعاطفة

ولكن ليت شعرى ، أى القوى هى تلك التى جعلتنى أحتفظ بك أيها الكنز الثمين ؟

وفيما هو مصغ إليها ، دب الموت فى فؤاد الطفل فقال متمتما :

ــ ها قد دنا الموت يا أماه ليذهب بى حيث يذهب الموتى أجمعون . . ولكن عند ما يأتى المساء وتمدين يدك لكى تطبعى على شفتى قبلة ناعمة يمازجها العطف والحنان سيهتف بك هاتف من الظلام مغمغما بأنك لاتجدينى ههنا !

ولكن ثقى يا أماه بأنى سأتحول نسيما يقبل ثغرك كل حين ، أو نورا يضىء مأواك فى الليالى الداجية المفعمة بعويل العواصف وأنين الرياح

وفى الليل ، فى ذكرياتك المحرقة عند ماتناجين طفلك الحبيب ، سأقول لك نامى يا أماه ولا تذكرينى . فانى عند ما يمسى البدر هلالا أسيل مع الشعاع لأنام فى حضنك الأمين !

وسأغدو حلماً يدخل من فتحات عينيك لأنوع من قلبك حزنه القاتل الساحق . ولكن إذا أقفت مذعورة ترين حولك فراشة بيضاء تؤنسك بطنين أجنحتها الصغيرة

ومتى أقبل عيد (جايا) وترنحت عذارى الهيكل مخففات بأنغامهن العذبة وحشة حياتك ، سأهريق نفسى فى تلك الأنغام حتى إذا لامست قلبك محت عنه كل الأحزان

وإذا جاءتك خالتى حاملة إلى هدية جميلة وسألتك أين طفلك يا أختاه فانى أذوب شوقاً إليه . . . فأجيبى أختك يا أماه بأنى توسدت عينيك ، وامتهدت روحك التى لايستطيع أن يلحدها الموت »

* * *

أجل . . . إن فى هذه القطعة الفاتنة التى يسأل فيها ـ رابندرانات طاغور ـ أمه الطبيعة عن كيفية مجيئه إلى هذا العالم

نعم إن فيها عصارة من جيد الشعر لا تأتى بمثلها إلا نفس انحدرت إلى قلب الحياة حيث التقطت كل ما فيها من ألم وبؤس ، وفرح وسعادة ، وابتسامات ودموع . . . ولعمرى إن نفساً تنتهى بك إلى هذا الحد العميق لهى نفس جبارة تجابه الدهر بشعاعها الوضاح ، فتملأ الأيام هيبة وجمالا ، والليالى سحراً ونوراً ! !

مناجاته

وطاغور شاعر عالمى قبل كل شىء . فان آراءه أصوات مرتلة تلعب بالقلوب والمشاعر ، وتحمل الاحساس على أجنحة من الخيال ، فترود به معالم الخلود وتغذيه بمواد الجمال الأزلى ، وتطبعه بطابع الجمال الالهى

ومما يمتاز به طاغور هو أنه شاعر متصوف كثير التأمل ، عميق المناجاة . وإن الانسان ليحار عند ما يقرأ قطعة له فيرى المعانى موشحة بغلاف رقيق من الفلسفة الوجدانية . وقد جنح تصوفه أخيراً إلى حد أصبح يحب فيه أن يرى الله فى كل مكان تحتضنه عيناه ، فهو يود أن يشاهده فى الوردة الخضراء ، وفى طلعة الفجر ، وفى مغرب الشمس ، وفى سكون الليل ، وفى سر الموت والحياة

نجوى

« ألا شرفنى يا إلهى ، وجرد حياتى من تلك المساوىء المعيبة التى تسود دائماً ابن الطينة . ضمها تحت رعايتك ، وأخبئها بين ظلال الموت والنور ، أو فى مكمن الليل بين نجومك . ثم أطلقها فى الصباح بين الزهور لتشدو كالبلابل بتسابيحك وترانيمك ! !

منين

إيه أيها القدر العاتى ! لقد حجبها الفبرعنى فما اكتأبت . ولكن أبت إرادتك إلا أن تبقى ساقية حبها سارية فى أودية قلبى لا ينضب لها معين ، ولا ينقطع لها خرير

ولكن الزمن قاس جداً ، فهو لا يحنو على النفوس المعذبة . وإنه ليهزأ من ألم القلوب كلما لج بها تذكار الماضى الدفين

آه !! إني أذكر . . . ولكن الحياة كلها نسيان . إنها سريعة الخطى نحو الموت . . . إنها تختفي ولكنها تترك للخيال مرارة الذكرى وتباريح الشوق والحنين

* * *

وفي اعتقادي أن هذه المقاطع هي من أروع المناجاة . وأنت إذا قرأت باقي مناجاته ترى رجلا حائراً مرتعشاً قد شمله ظلام ليل الأسى . فهو يبكي ، وهو يرجو (القدر) أن يرحمه في دجى الليل البهيم بخلود ذكرياته الماضية . ويا لها من ذكريات رقيقة عارية من أثواب الادعاء والكبرياء ، حافلة بمعاني اللوعة والحزن هي ذكريات الشاعر الحنون

والحقيقة أنك لا تكاد تقرأ هذه المناجاة حتى تجري الدموع من عينك ويغمرك سكون رهيب طافح بالجبن والكآبة ، وحتى يأخذك شيء من اليأس والسخط على الحياة والاستمساك بها !!

الشرق والغرب في نظر طاغور

ولطاغور رسالة قيمة يبشر فيها بانتشار السلام والمحبة بين الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم وميولهم . وهذا لعمري عمل جليل يدل على عظمة هذا الشاعر الجبار . فهو رجل عالمي جامع ، وبخلاف « كتابنا وشعرائنا الذين يكتبون للدين والأحزاب والجنسية أو لفئة جاهلة متعصبة من الناس . . . ومن المضحك أن هؤلاء الأدباء المزيفين الذين يقلقون الشرق العربي بكتاباتهم وأشعارهم ينعون على البشرية عدم اكتراثها بهم . . .

لقد قرأت كثيرا من مؤلفاته . ففي كتابه « سيد هانا » يتغنى بالمحبة ويدعو الناس إلى اعتناقها . ولطالما نادى بتوثيق عرى الحب ليعيش العالم في سعادة وهناء . ومن قوله :

« إذا كانت الأمهات يلدن والقبور تبتلع ، فلماذا الحروب والثورات التي تدمي فؤاد الانسانية وتقلق روعها ؟ ولماذا لا يعيش الانسان تلك المدة القصيرة في حب وسلام ؟ »

فمن هذه الجملة الوجيزة يستخلص القارىء صورة صحيحة لنفسية طاغور

وأما الشرق والغرب فهما في نظره اخوان توأمان يجب عليهما التقيد بقانون العدل والمساواة . وانه ليس حقاً أن يظل الشرق عبداً للغرب كما هي الحال اليوم ، فيسومه جميع أنواع الذل والعبودية

في عام ١٩٢٠ طاف طاغور في أنحاء العالم ، ثم عرج أخيراً على « نيويورك » المدينة المشتعلة أجنحة الروح ، والهازئة أبراجها الحديدية الصماء بأحلام الشرق وعوائده القديمة . . . فألقى هناك محاضرة ضخمة عن مدنية الشرق وطابعها الفلسفي جاء فيها ما يأتي :

« الغرب يكون للشرق عوامل الحياة الراحلة ، والشرق يعطي الغرب تعاليم الروح الخالدة . فيالله انظر أيها الغرب وتأمل . ألا يستطيع الشرق المستعبد أن يقدم لك غير أرضه ورقاب أبنائه ؟

فالى متى ينظر الغرب إلى الشرق نظرة السخرية والاحتقار ، ومتى يستيقظ الغرب من نشوته العمياء ؟

لا تصدق يا غرب عن كل ما تسمعه من دعاة الاستعمار ، فان هؤلاء يصورون لك الشرق صورة متناقضة ينهش حقائقها التعاظل الممقوت . بل تعال أنت أيها الغرب الحر المتسامي ، غرب أجناد الحق وابناء الخلود ، وادرس حياة الشرق الجميل . . . تعال بروح الحرية التي بنيت عليها حضارتك الأولى ، فترى حينئذ كما نرى نحن أن الشرق الضعيف أهل للحرية ، وأن في أعماق أخلاقه ومبادئه وميوله حكمة خالدة أسمى من الحياة المادية »

وكأني هنا ـ بطاغور ـ وقد رأى بعينه جشع الغرب وتكالبه على امتلاك قطعة من الأرض ، وشاهد انتحار الفضيلة فيه ، واستيلاء الحياة المادية على عقول أبنائه ، وتقلص الشعور من من النفوس ، وتلاشي حرارة الشعر ، وتمشي الأطماع والأكاذيب في سننه وقوانينه فهو يقول « ان في أعماق روح الشرق وميوله جمالا أسمى من الحياة المادية التي يعيشها الغرب ، وان ذاك الذي تضمه روح الشرق ومبادئه ليس سوى الوداعة المستحكمة من قلوب أبنائه ، والطهارة الناشرة أجنحتها فوق قصورهم وأكواخه ، والنجوم التي تنير حقوله ووهاده . . . فتبدو الحياة في ذلك الشرق الشعري الخلاب كأنها حلم من الأحلام الرائعة . وفي الحقيقة أن طبيعة الشرق لهي عرس من أعراس الحياة . فعلى الشواطىء تمرح عذارى الحب والجمال ، وفي الكهوف تمرح تخيلات الدهور والأجيال

* * *

إن في روح هذا الشاعر الهندي المتصوف الذي نشأ في ظلال الشرائع الشرقية القديمة مالأ قلبه من عصير « الفرفانا » وكتب أجداده الخالدة خيالا يقظا سوف يصغي الدهر إلى همسه المسكر مستمهلا في فراره بين أكوام الموتى وساحات الحروب . . . ولكن إنسانية اليوم لن تصغي إلى حفيف أجنحة أطيافه ، ولن لمح ما في حكمته من نور ، ولن تجرع ما في كآبته الصاحية من كوثر حي ، لأنها إنسانية ثملة بأبخرة الدماء ، وعبق البارود ، وهزيم المدافع ، وقلقلة القيود

ستبقى ثملة . . . وسوف لا تستفيق من نزواتها وخيلائها حتى تقتلها النزوات وتقهقرها الخيلاء فتصير عندئذ نجمة الحق لامعة في أفقها المعلى حيث تلتقي الأزلية والأبدية ، وحيث يتعانق فجر الحياة ومساؤها ،

«البرازيل»

يوسف البعيني